عنوان المحاضرة: التضحية في سبيل الآخرين عند ليف تولستوي وميخائيل نعيمة

تعريف بالأديب ليف تولستوي:

ليف نيكولايافيتش تولستوي (١٨٢٨-١٩١٠) من أعمدة الأدب الروسي في القرن التاسع عشر، فقد كان روائياً ومصلحاً اجتماعيّاً وداعية سلام ومفكّراً أخلاقياً، استطاع أنْ يسمو إلى درجةٍ من القدرة الفنيّة حيث إنّ مؤلفاته شغلت إحدى المراتب الأولى في كنزِ الأدب العالميّ.

تميّز تولستوي بإخلاصه لمصالح الشعب، وبإيمانه بقوى الشعب وبمستقبله، وبإنسانيته الحقيقية، وبتطلعاته إلى تصوير الحياة تصويراً صادقاً، وقد تُرجِم الكثير من مؤلفاته إلى اللغة العربية بعد الحرب العالمية الثانية. وكُتِبَ الكثير حول أدبه في الوطن العربي.

تعريف بالأديب ميخائيل نعيمة:

ميخائيل نعيمة (١٨٨٩-١٩٨٨) لبناني الأصل هو أديب وشاعر وقاصّ ومسرحيّ وناقد وكاتب مقال ومتأمّل في الحياة والنفس الإنسانيّة، يُعدّ علامة بارزة في نهضة الفكر العربي الحديث.

كان من أهمّ مؤسسي مدرسة المهجر، ومن مؤسسي الرابطة القلميّة إلى جانب الأديب جبران خليل جبران وغيرهما، وأحدث اليقظة في الأدب، إذ قاد إلى التجديد، وقد ترك خلفه آثاراً باللغة العربيّة والإنكليزيّة والروسيّة.

التضحية في سبيل الآخرين عند تولستوي ونعيمة:

يكتب تولستوي في قصة "القوزاق" (١٨٦٣) أنَّ السعادة حاجة فطرية لدى الإنسان ولذلك فإنّ تلبيتها أمر ضروري ومشروع، ولكن إذا لُبّيت بصورةٍ أنانيةٍ؛ أيّ في البحث عن الثروة والمجد،

فإنَّ الظروف يمكن أنْ تتكون بشكل لا يستطيع فيه الإنسان أنْ يلبي أمانيه كلّها، وهذا يعني أنَّ هذه الأماني غير مشروعة. ويمكن تلبية حاجة الإنسان من خلال محبة الآخرين والتضحية بالذات من أجلهم : "وهل يجوز أنْ نعيش بصورةٍ أنانيةٍ، إذ إنَّ الحياة قصيرة، وما معناها إنْ لم نعمل فيها الخير ولا يعرف أحد أننا قمنا بعمل الخير". توصّل أولينين بطل القصة في تأملاته عن معنى الحياة إلى الفكرة المذكورة، ونجد في مؤلفات ميخائيل نعيمة مثل هذه الأفكار.

وفي قصة "ويذوب الجليد" التي نشرها الكاتب في مجموعة "أبو بطة" (١٩٥٨) يكتب: "مني قشّة ومنك قشّة"، فأنا لا أستطيع أنْ أعيش في عالمٍ يده ونظراته وهواؤه وقلبه من جليد، فمني قشّة، ومنك قشّة، ومن كلّ إنسان قشّة، ويذوب الجليد. نرى أنَّ الكاتب ينادي في هذه القصّة بالتعاون؛ أي أن يكون العطاء متبادلاً الذي يولّد المحبة لكي نشعر بدفء العالم.

وتذكّرنا هذه القصة بقصّة ليف تولستوي "المعلّم والعامل" (١٨٩٥) يشعر المعلّم بدفء من عامله، ويتحسّس أنَّه يعيش بسببه، فإن عاش العامل عاش المعلّم، وإنْ مات العامل مات المعلّم. فالمعلّم هو العامل، والعكس صحيح. ففي هاتين القصّتين نرى أفكار نعيمة وتولستوي عن الروح الأخوية التي يجب أنْ تخيّم على البشرية.

وفي قصّة "شهيدة الشهد" من المجموعة نفسها لميخائيل حصلت خيزران على العسل من أجل أخيها المريض من خليّة النحل، فلسعها النحل، فماتت، وحتى الآن تحدّث أمُّها الناس عنها. وفي قصّة "جهنم" كان على عدنان إخلاء البيت الذي يسكنه، فأخذ يحرق كلَّ ما عنده حتى توصّل إلى صورة عشيقته التي كانت تخون زوجها معه. وعندما أحرق نصف صورته معها، وإذ بجرس الهاتف، وإذا بها تناديه. ويشعر عدنان بآلامٍ عظيمةٍ، ولا توجد لديه وسيلة يتخلص بها من هذه الآلام، فتخلص منها فقط عندما تحسّس في قلبه بعض الحبِّ، يرى المؤلّف أنَّ الجنة والجحيم هما حالتان معنويتان من حالات القلب الإنساني، ومكانهما فيه، وليس في أيِّ مكان آخر.

ويكتب ميخائيل نعيمة في مجموعة "النور والديجور" في أكثر من مكانٍ أنَّ على الناس مساعدة بعضهم. فكلُّ الكائنات الحيّة يساعد بعضها مع بعضها الآخر. تطير الطيور أسراباً لكي يدافع بعضها عن بعضها الآخر، كما تتحسّس أعضاء الجسد بعضها آلام بعضها الآخر فإنْ تألّمت يد الإنسان أو قلبه أو عينه تألّم الجسد كلُّه، وتغيّر عمله بسبب مرض ألمَّ بأحد أعضائه.

فحياة الإنسان تتأثّر وتؤثّر بحياة الآخرين، فإنْ أحبَّ أحد أفراد المجتمع قريبه، فإنَّما أحبَّ نفسه، وإنْ أحبَّ نفسه أحبَّ الآخرين. الكون بكامله مترابط، الماضي يؤثّر على الحاضر، والحاضر على المستقبل، الشمس تؤثّر على الأرض، وعلى كواكب أخرى، فكلُّ ذرةٍ في الكون متأثّرة ومؤثّرة فالكون وحدة متكاملة.

يرى ميخائيل نعيمة أنَّ الأنانية– أيّة كانت– ليست صفةً سلبيةً فقط، وإنَّما هي أيضاً صفة غبيّة ولا فائدة منها، حياة الفرد تشبه المياه في المحيط الذي يعطي مياهه عن طريق التبخر، وهي تعود إليه بوساطة الأنهار. فأيّ فعل يقوم به الفرد سواء أكان إيجابياً أم سلبياً بالنهاية يرجع إليه، وكتب عن هذا الموضوع في سيرته الذاتية "سبعون" (١٩٦٠) وكتب في كتابه "مرداد" أنَّ الناس يجب أنْ يعرفوا أنَّ كلَّ أعمالهم وأفكارهم ونياتهم وأقوالهم تعود إليهم. ولذلك يجب معاملة الآخرين كما نحبّ أن نُعامل، ويجب أنْ ننظّف قلوبنا من كلِّ نيّة سوداءَ شريرةٍ، وآنذاك تختارنا الإرادة الكليّة؛ لتخليص البشرية من آلامها لكي نستطيع أن نصل إلى المحبّة وإلى الفهم الكامل.

وقد كان مرداد يعلّم نوحاً وكذلك علّم الآخرين. كذلك كان يقول الخادم مرداد لتلاميذه. ومرداد في كتاب نعيمة هو المخلّص الذي يساعد نوحاً في مدّة الفيضانات، وبعد ذلك جاء إلى الدير الذي بناه سام بن نوح، لكنّهم في الدير لم يقبلوه كأحد أعضاء الدير، وحُرِم من حقوقهم؛ لأنَّ ملابسه كانت بالية، وشكله يشبه المتسوّل، فقبلوه بصفة خادم، وأصبح– برأي الرهبان– قدّيساً ومعلّماً ونبيّاً.

كتاب "مرداد" عبارة عن مواعظه وهي صالحة للأمكنة والأزمنة والشعوب كلّها، ويقترح مرداد

إلغاء كلمة "أنا"؛ لأنَّها جزء من الكلِّ. لكي نحبَّ أنفسنا يجب أنْ نحبَّ الآخرين. إنّنا نعيش لكي ندرك الحبَّ، ونحبُّ لكي ندرك الحياة. والمحبة هي الله، ووصيته. وكلّ من يحبُّ الجزء، ويترك الكلَّ فإنَّ محبته محكوم عليها بالموت، فكيف نحبُّ الأوراق على الشجر ولا نحبُّ الشجر نفسه.

يستنتج ميخائيل نعيمه أنَّه علينا أن نتخلّى عن ذواتنا ونذوب في الآخرين. وآنذاك تستطيع الإنسانية أنْ تصل إلى حلمها وهو معرفة كلِّ شيء. بالحبِّ وحده يمكن أنْ ندرك كلَّ شيء؛ لأنَّ المحبّة هي الله، والله محبّة. وتذكّرنا هذه الكلمات بكلمات تولستوي في أسطورة: "بمَ يعيش الناس؟" من كان في المحبّة، كان في الله، والله فيه؛ لأنَّ الله هو المحبة". ونعبّر عن الحبِّ بعمل الخير، وبرفض الشرّ، ويمكن أنْ نجد هذه الأفكار في مؤلفات تولستوي، وميخائيل نعيمة.

رواية "الحرب والسلام" (١٨٦٣-١٨٦٩) ذات مواضيع كثيرة ومتعددة الأفكار. من بين الأفكار البسيطة لهذه الرواية أنّنا يجب أنْ نعمل الخير ولا يجوز أنْ نعمل الشرّ. يحاول الأمير فاسيلي في هذه الرواية أنْ يسرق وصية الكونت بيزوخوف التي بموجبها يحصل بيير على ثروةٍ كبيرةٍ وعلى لقب كونت بيزوخوف، ولكنّ آنّا ميخايلوفنا حالت من دون تحقيق نواياه الشرّيرة.

يتخلّص بيير من الفخّ الأوّل الذي نصبه له الأمير فاسيلي، لكنّه يقع في الثاني، إذ اضطر إلى الزواج من إيلين ابنة الأمير فاسيلي، ولم يكن سعيداً معها، ولكنَّ أفكار الأمير فاسيلي الأنانية لم تعطه الثروة أو الكرامة، وفي سنواته الأخيرة أصبح شيخاً متقدماً في السن يستحق الشفقة، ولم يستطع أنْ يزوّج ابنه أناتولي من ماريا بولكونسكي، وأصبح أناتولي بعد معركة باردينو مشوّهاً. وماتت إيلين في صباها بسبب حياتها الفاسدة.

ولّدت تصرفات الأمير فاسيلي عند بيير فكرةً تشاؤميةً، فقد سمع بيير قصّةً عن الجنود الذين كانوا في أثناء الحرب في الخندق وتحت القصف، والذين اختلقوا وسائل كثيرة للتسلية؛ لكي يتحمّلوا الحرب بصورةٍ أسهل، ولكي يتناسوا الخطر المحدق بهم، ورأى بيير أنّ الناس كلّهم يشبهون هؤلاء

الجنود الذين يحتمون من الحياة ويتناسونها ويتجاهلونها، بعضهم بحبّهم للشرف، وبعضهم بانشغالهم بالسياسة، وبعضهم بهواية الصيد، وبعضهم بالإدمان على المشروبات الكحولية: "لا يوجد عمل مهمّ وآخر وضيع، الأعمال كلّها متساوية الأهمّية، فقط المهمّ أنْ أحتمي منها كما أستطيع! –فكر بيير– فقط المهم ألّا ألاحظها، هذه المخيفة". ويقصد بكلمة المخيفة أنَّ الحياة مخيفة.

إنَّ تأملات بيير حول الحياة تشبه تأملات تولستوي نفسه. يكفي أنْ نتذكّر ما كتبه تولستوي في اعترافه بأنَّ الإنسان لا يستطيع أنْ يعيش إلّا حين تُسكره الحياة وتُغشي بصيرته، أمَّا حين يكون صاحياً فإنّه يستحيل عليه إلّا أنْ يرى أنَّها زيف محض، زيف غبي! ليس فيها شيء مسلّ أو ذكي.

حال بيير بيزوخوف غير طبعية. فهو غنيّ ومتعلّم وذو صحةٍ جيدةٍ، ولكنّه لا يعرفُ السعادة ويثير السخرية؛ لأنّ زوجه خائنة، كلّ فلاح من فلاحيه سعيد أكثر منه، وقد تزوج بيير من ناتاشا روستوفا في نهاية المطاف، فاستحق السعادة لقلبه الذهبي، فإذا كان زواج بيير من إيلين قد أدى به إلى التشاؤم فإنّ زواجه من ناتاشا روستوفا أنقذه منه وخلّصه من الأفكار السوداوية.

أمَّا دولوخوف –أحد أبطال الرواية– الذي أصبح عشيقاً لإيلين زوج بيير: "فقد لعب في حياة بيير الدور نفسه، الذي لعبه أناتولي في حياة أندريه بولكونسكي..." وعندما يقع بيير في الأسر، وتظهر جانبه ناتاشا روستوفا، وآنذاك كان المخلّص هو أفلاطون كاراتايوف، الذي ترك انطباعاً كبيراً على بيير بتصرفاته. وتمّ لقاء بيير بأفلاطون كاراتايوف عندما تحطّم إيمان بيير بعدالة النظام الذي يسود العالم، وبالله، وتغلغلت أفكار أفلاطون كاراتايوف إلى أعماق قلب بيير ليس كنظريةٍ، أو كمنظومةٍ فكريةٍ، وإنَّما كإحساس بالحياة المحيطة المفقودة المعقولة. أحبّ أفلاطون كاراتايوف الجميع وعاش الحبَّ، وبقوة هذا الحبِّ كان أفلاطون كاراتايوف يحسّ أنّه جزء لا يتجزأ من العالم كلّه. كاراتايوف ابن الطبيعة العظيم. وعندما يموت فإنَّما يرجع إلى حضن الطبيعة.

إنَّ موقف تولستوي من شخصياته هو موقف أخلاقي يحاول أن يظهر الأحداث من خلال

تجربة الخير والشرّ ومن خلال القانون الأخلاقي، وهذا واضح في مخطوطات "الحرب والسلام" فهذه الرواية يمكن فهمها على أنَّها رواية أخلاقية، أكثر ممّا هي رواية تاريخية، ولعلّ نابليون بونابرت هو الشخصية المروعة في الرواية الذي أقدم على عدد لا يحصى من الجرائم التي أدت إلى دخول القوات الروسية إلى قلب بلده إلى باريس.

ويفهم الكاتب الاحتفالات الشعبية، والنصر على نابليون من وجهة نظرٍ فلسفيةٍ أخلاقيةٍ؛ أيّ انتصار العدالة على الظلم والشرّ في الحياة. وهزيمة نابليون هي هزيمة فلسفته في الحياة، فهو يقوم بدور الجلّاد، لكنّه يحاول أنْ يقنع نفسه بأنَّه يهدف إلى خير الشعوب.

قائد الجيوش الروسية ما بين عام ١٨٠٥–١٨١٢ الجنرال كوتوزوف هو الشخصية المضادة لشخصية نابليون بونابرت بكلِّ شيء. فلديه حسّ شعبيّ ساعده على التعمّق في مجريات الأحداث، وفهم مضمونها ونهايتها. ويعتقد أنّ الصبر والزمن شرطان ضروريان لتحقيق النصر، ولتجاوز الأزمة. يتّصف كوتوزوف ببعض الصفات الشعبيّة العفويّة، وتؤدّي إلى البطولة الشعبيّة الإنسانيّة.

وبالحديث عن ناتاشا روستوفا التي لا تفكّر بالقرارات التاريخيّة المصيريّة، وإنَّما تطيع إحساساتها العفويّة الفطريّة، تقوم بالمساعدة على نقل الجرحى من موسكو، ومثل هذه الأعمال البسيطة العفويّة أدت في نهاية المطاف إلى النصر التاريخيّ على النابليونيّة، وهذه الصفات جعلت كلّاً من الأمير أندريه بولكونسكي والكونت بيير بيزوخوف، الشخصيّة القريبة إلى قلب تولستوي فقد ظهر في بداية الرواية، واستمرّ حتى نهايتها، كأنّه يرمز إلى الشعب الذي لن يموت.

في الحادي عشر من نيسان عام ١٩٠٨ أيّ عندما كان عمره أقل من عشرين عاماً يكتب ميخائيل نعيمة في يومياته التي نشر بعضها في الجزء الأوّل من سيرته الذاتية "سبعون" (١٩٥٩) عن هذه الرواية أكثر من مرةٍ؛ لأنَّه قرأها خلال مدّةٍ طويلةٍ، لأنَّ الرواية– كما هو معروف– كبيرة الحجم، وتتضمّن أفكاراً عميقةً، وتتحدّث عن مصائر أوروبا في زمن نابليون بونابرت.